المحاضرة الخامسة مشكلة المنهج في علم الدين المقارن في الغرب

ظهور علم الأديان المقارنة في الغرب ودوافعه

ظهر علم الدين المقارن في الغرب في وقت كان الصراع بين الدين والعلم على أشده عندما كان العلماء يتجهون اتجاهاً معاكساً تماما لاتجاه الكنيسة و بابواتها، مع تدهور في نظام الكنيسة، وضعف واضح في سلطتها التي كانت تتمتع بها عبر العصور وبخاصة في العصور الوسطى، وقوة نسبية اكتسبها العلماء نتيجة ما توصلوا إليه من اكتشافات أقنعت الناس بقيمتها، وجذبتهم إلى رحابها يحاولون فهمها، ويقدرون رجالها، ويذهبون وراءهم يستهدونهم ويستفتونهم ليس فقط في مسائل العلم الطبيعي وموضوعاته، إنما في جميع ما يتعلق بالحياة الإنسانية في أبعادها المختلفة، وجوانبها المتنوعة، ومناحيها المتعددة، الأمر الذي جعل العلماء يخولون لأنفسهم سلطة إخضاع كل شيء لمقاييسهم المادية، وبحث كل شيء في ضوء مناهجهم التجريبية.

وظن الناس والعلماء معهم في أغلب الأحيان في ظل انبهارهم بالنتائج التي توصلوا إليها في المجال الطبيعي أن لدى العلم الطبيعي إجابة على كل سؤال واستفسار يتعلق بأي أمر من أمور الطبيعة وما وراء الطبيعة، أو أن له القدرة على بحث كل شيء متعلق بهذه العوالم، بل إنه الوسيلة الوحيدة بها يعرف الخير والشر، وبه يحسم الخلاف في كل ما يتعلق بالإنسان والكون، والخالق عز وجل ، وبطبيعة الحال، وبحكم الظروف المختلفة من انتصارات غربية في ميادين العلم والسياسة، وانحطاط وتدهور في أنظمة الكنيسة، وتأييد شعبي للعلم والعلماء كان العلماء في مواجهتهم مع الكنيسة في وضع يردون الصاع صاعين، وما فعلته الكنيسة بالعلماء في بداية العصر الحديث كان العلماء في وضعهم الجديد يفعلونه بالكنيسة وأصحابها.

في هذا الجو المشحون بالحماس للعلم وأهله، والبعد عن الدين ممثلاً في رجال الكنيسة في تصرفاتهم وسلوكياتهم كان على أي نظرية أو مذهب أو دين أو فلسفة تريد أن تجد لها أرضا وقبولاً وأنصاراً وثباتاً، أن تقدم نفسها في صيغة يرضى عنها العلماء الطبيعيون وهم أصحاب الكرة الآن ولو في المناهج على الأقل، والمناهج تمثل العمود الفقري لأي فلسفة أو مذهب أو نظرية أو علم، كما كان على هذه المذاهب والآراء والنظريات والفلسفات والأديان أن تبتعد عن أي شيء ينبئ عن عداوة للعلم وأهله، أو يشير ولو من بعيد إشارة تسيء إليهم، انظر إلى ما قاله أحدهم وما يقوله يعبر عن المزاج العام لهذه المرحلة مرحلة ظهور علم الدين المقارن في الغرب: يبدو العلم كاسحا كل ما أمامه، وفي سكرة النجاح بدا قادرا على بيان كل شيء وفي عقول الكثيرين كان هناك اقتناع بأن فجر عصر جديد قد بزغ، وأن الإنسان بقدراته المستقلة على وشك التغلب على جميع العقبات التي تعترض طريقه نحو التقدم والسرور، أما فيما يتعلق بالدين والإله فلن تكون هناك أي حاجة إليهما.

ونستطيع أن ندرك دقة هذا الوصف لتلك المرحلة إذا تأملنا ما قاله John Tyndall" في عام ١٨٧٤م أي بعد بضع سنوات فقط من ظهور الدين المقارن كفرع علمي مستقل بصفة رسمية قال: (نحن ندعي وسننتزع من اللاهوت جميع النظريات الكسمولوجية، وإن الأنظمة المختلفة التي انتهكت حتى الآن حرمة العلم الطبيعي عليها أن تسلم نفسها للعلم وتخضع لحاكميته، وتتخلى عن أي تفكير للتحكم فيه وإن على جميع الأنظمة أن تتعلم التكيف مع ما يقتضيه التطور العلمي أو تنسى نفسها تماما)، فظهر علم الدين المقارن في هذا الجو ليكون جسرا بين العلم والدين.

وكما ينقل عن "Max Muller"و.sharpe": (وبما أن العلم والدين يمثلان نقيضين لا يجتمعان يمكن أن يكون هناك علم للأديان ينصف الاثنين)، لقد كان ظهور علم الدين المقارن في الغرب في العقد السادس من القرن التاسع عشر إيذانا ببروز اتجاه جديد

يحاول دراسة الأديان من وجهة نظر علمية صرفة وإن كانت طبيعة هذه النظرة العلمية وحدودها غير محددة، وكان هناك اتفاق على أن تكون هذه الدراسة العلمية مبنية على معطيات بعيدة عن مسلمات الكنيسة ومبادئها اللاهوتية الموروثة، وكان علم الأديان قد ظهر في كبريات الجامعات الغربية، كجامعة شيكاغو التي فتح فيها قسم خاص سمي (الأديان المقارنة) في سنة ١٨٩٣م؛ وفتح قسم باسم علم الأديان، في جامعة مانشستر سنة ١٩٠٤م، وجامعة السوربون سنة ١٨٨٥م بعد ما قرر البرلمان الفرنسي بفتحه، كما فتح أول كرسي لعلم الأديان في ألمانيا برلين سنة ١٩١٠م، وقد فتح كذلك بإيطاليا أول كرسي لعلم الأديان بجامعة ميلانو سنة ١٩١٢م.

وعندما كان ماكس ميولر يشير إلى أن مقارنة الأديان علم مبني على مقارنة علمية محايدة لجميع الأديان أو على الأقل للأديان العالمية الكبيرة فإن مفاهيم الكلمات التي استخدمها في هذا السياق لم تكن واضحة محددة في أذهان الناس ولا في أذهان العلماء ما المقارنة؟ وما العلمية؟ وما المحايدة وحدودها؟ ثم ما الدين نفسه ؟ كل هذه الأسئلة التي لم تحدد إجاباتها تركت الباحثين بطبيعة الحال يأخذون الأمر كما يروق لهم، الأمر الذي يسبب مشاكل منهجية كثيرة فيما يتعلق بهذا الفرع من النشاط الفكري، ولا زال الباحثون حتى الآن وقد مضى أكثر من قرن على ظهور هذا العلم عاجزين عن تحديد معاني هذه الكلمات بصورة دقيقة يتفق عليها، ويعمل بها.

ولا أحد يستطيع أن يختلف مع Sharpe المؤرخ الأكثر شهرة لتاريخ مقارنة الأديان في الغرب عندما يقول: وإن قيام علم الدين المقارن يتوقف على توافر شروط ثلاثة أساسية، وهي:

أولا: دافع قوي للقيام بالدراسات المقارنة حول الأديان.

ثانيا: توفر المادة العلمية اللازمة.

ثالثا: منهج مقبول لدى الجميع ينظم هذه المادة العلمية ويجعل منها بناءً محكما.

وعندما ظهرت مقارنة الأديان في الغرب كان قد توفر لها الشرط الأول مع توفر الجهود على توفية الشرط الثاني، فقد كان هناك الرغبة الأكيدة لفهم الأديان، ودافع قوي كما يبدو من كثرة الكتابات في هذا المجال لإجراء مقارنات بينها، وقد اتجهت أنظار العلماء في مجال مقارنة الأديان إلى أديان الأرض المختلفة التي كان ينظر إليها من قبل على أنها وثنيات لا يليق بالعالم المسيحي الاهتمام بها ولا دراستها.

إن اندفاع طائفة من مفكري الغرب إلى الاهتمام بالأديان العالمية ذلك الاهتمام الذي يعد مظهرا بارزا من مظاهر الاعتراف بالأديان الأخرى هو في ذاته دليل قوي على توفر هذا الدافع، وقد لا نتفق نحن المسلمين مع علماء الأديان الغربيين في تعريفهم للدافع المطلوب بجميع عناصره التي منها: (الاستعداد للتنازل عن عقيدتك الخاصة قليلا ليحل محلها اهتمامك بالدين الآخر مع الإيمان بأن فيه أيضاً شيئا من الحق) أو بعبارة أخرى إن الدافع المطلوب هنا يتضمن الاعتراف بأن الأديان جميعا تتقاسم الحق بنسب متفاوتة وإن الحق ليس ملكا لدين واحد، وإننا قد لا نتفق على هذا العنصر من عناصر مفهوم الدافع المطلوب هنا كشرط أساسي لقيام مقارنة الأديان، لكننا لا نستطيع إنكار توفر مثل هذا الدافع المطلوب لدى علماء الغرب إبان ظهور هذا العلم بغض النظر عن مدى التزامهم بعناصره ومقتضياته.

ومما لا يجب أن ينكر لعلماء مقارنة الأديان في الغرب أنهم كانوا يملكون شجاعة نادرة عندما ظهروا في وسط يعج بالعداء نحو الأديان غير المسيحية ليخاطبوا العلماء باسم الدين ويخاطبوا أصحاب الكنيسة باسم العلم ويحاولوا التوفيق بين العلم والدين أو مع أحسن تعبير بين رجال العلم ورجال الدين ثم وفوق هذا كله يصرحون أمام أرباب الكنيسة الذين يعتبرون كل دين غير المسيحية ضلالا وكفرا وعملا من أعمال

الشيطان، بأن الأديان الأخرى أيضا تستحق الدراسة والبحث بل الاستفادة منها، وأنها تشتمل مثل المسيحية على شيء من الحق، وبطبيعة الحال لا يتصور هذا الموقف من علماء الأديان لولا وجود مثل ذلك الدافع القوي للدراسة والمقارنة، وكذلك لا تتصور تلك الكتابات الكثيرة عن الأديان الأخرى والاهتمامات الزائدة عنها بدون هذا الدافع.

فكما توفر الدافع قد توفر لهذا الفرع الجديد من النشاط الفكري من يتوفر على تجميع المادة العلمية اللازمة، فقد بدأ العلماء في البحث عن المصادر الأساسية للأديان على اختلافها وترجمتها إلى لغاتهم مع اهتمامهم بأبحاث الأثريين وعلماء الأنثروبولوجيا واكتشافاتهم التي اعتبرها علماء الأديان مصدرا أساسيا لمعرفة أصل الدين ونشأته وتطوره.

ويمكنك أن تنظر إلى ذلك المشروع العلمي الضخم الذي أنجزه ماكس ميولر مع معاونة زملائه باسم كتب الشرق المقدسة(Sacrad Books of the East) في خمسين مجلدا، ان توفر عدد من الباحثين على ترجمة هذه الكتب الصعبة من لغتها الأصلية مع شروح وتعليقات، وتمويل هذا المشروع وأمثاله من قبل مجموعات لا تنتمي إلى الكنيسة ينبئ عن توفية الباحثين للشرط الثاني وقيامهم عليه، كما ينبئ عن توفر ذلك الشرط الأول وهو الدافع على أقوى صوره بغض النظر عن خلفية هذا الدافع هل هي سياسية محضة ؟ أو علمية بحتة؟ أو هما معا ؟

أما الشرط الثالث الأساسي ألا وهو المنهج فهو الذي لم يتوفر لمقارنة الأديان في ذلك الوقت، بل ظل أمر المنهج هو القضية الكبرى التي شغلت الباحثين في مقارنة الأديان منذ البداية وإلى يومنا هذا، حتى أصبح البحث عن المنهج المناسب وتقويم المناهج التي تستخدم فرعا علميا مستقلا في الجامعات الغربية في أقسام مقارنة الأديان ألا وهو مناهج البحث في مقارنة الأديان، حتى أصبح موضوع الأديان المنهج مشكلة المشاكل

في هذا المجال تعقد بسببه المؤتمرات، وتنشر لأجله الكتب والمذكرات، وتصدر لأجل تنشيط البحث فيه الصحف والمجلات.

إن أهمية المنهج في أي علم وفي أي نشاط فكري ليست موضع مناقشة، ومن المستحيل تصور علم بدون أن يكون له منهج مناسب يستخدمه في تناوله لقضاياه، وفي دراسته لموضوعاته، وعلم بدون منهج يمكن أن يكون أي شيء غير العلم، ومن شأن المنهج في أي علم أن يكون حائزا لرضا جمهور المشتغلين في المجال وقبولهم، وترك موضوع المنهج مفتوحا ليتبنى كل واحد المنهج الذي يرتاح إليه يجعل من المستحيل تحديد هوية هذا العلم وتعيين اتجاهاته ثم تقويم نتائجها، فوجود منهج واحد محدد أو مناهج مختلفة محددة متفق عليها أمر لا يتوقع فيه مناقشة أو جدل، ولقد غاب هذا المنهج المتفق عليه أو المناهج المتفق عليها منذ البداية في مجال مقارنة الأديان.

وإذا كان المنهج في أي علم هو الخطوات المنظمة التي يتبعها الباحثون فيه للوصول إلى بغيتهم بصورة دقيقة فإن غياب هذا المنهج في الحقيقة يجعل نشاط العلماء والباحثين عبثاً فكريا يضلل الناس بدل أن يهديهم، ويحيرهم بدل أن يقدم لهم ما يزيل حيرتهم.